التفاعل بين الاغتراب والمجتمع المتعدد الثقافات

بقلم: د. يوسف مروه

تمهيد: لا بد للباحث في الوقائع المتعلقة بالجالية العربية من إلقاء بعض الأضواء على مصطلحات "الجالية" و"الهجرة" و"الاغتراب". الجالية لغة هي مؤنث الجالي أي الخارج من بلده ووطنه وجمعها جوّال. وتعني مجموعة الغرباء الذين تغربوا ونزحوا عن بلدانهم وأوطانهم وسكنوا وتوطنوا البلدان الأخرى التي نزلوا بها. واشتقت كلمة (الجالية) من فعل جلا، ويقال جلا الرجل عن بلده أي خرج منه، وأجلاه عن بلده أي أخرجه منه. ويطلق عادة على أفراد الجالية اسم المغتربين أو المهاجرين. وذلك بسبب الاغتراب والهجرة. والاغتراب أي النزوح عن الوطن إلى وطن آخر، فهو مشتق من فعل اغترب وتغرّب وغرّب أي نزح وابتعد عن الوطن الأم، ومنه اشتق اسم الغريب جمع غرباء أي البعيد عن وطنه. والهجرة أي الخروج من أرض أو وطن إلى أرض أخرى ووطن آخر، فهي مشتقة من فعل هجر. ويقال هجر الشيء أي تركه وأعرض عنه.
وتشير التقارير والوثائق التاريخية إلى أن أول مغترب عربي استقبلته كندا في العصر الحديث هو ابراهيم أبو نادر من مواليد زحلة (لبنان) الذي وصل إلى مونتريال (كيبيك) في عام 1882، وبذلك فإن الجالية العربية من أقدم الجاليات وجوداً في كندا. وإذا تابعنا نمو الجالية في كندا نلاحظ أن مجموع أفرادها بلغ 250 نسمة في عام 1890 وأصبح 1200 في عام 1901، ووصل العدد إلى 102 ألفاً في عام 1950. وأصبح حوالي نصف مليون نسمة في عام 2000. والملاحظ أن المغترب بعد الاستقرار في ديار الاغتراب يكتشف المساوئ التي عاشها في وطنه الأم، والحسنات التي يتمتع بها في حياته الجديدة. ومن أهم المساوئ نذكر فساد أساليب التعليم والتعصب والتطرف والتضارب بين المفاهيم والمصطلحات والتأرجح بين الحرية والقهر. ويبدو أن التفاعل الاغترابي في المجتمع الكندي المتعدد الثقافات كانت نتائجه الإيجابية لمصلحة المغتربين، لأن المغترب استطاع أن يميّز بين المساوئ التي حملها معه والحسنات التي اكتسبها من المجتمع الجديد. والواقع أن كل ما حمله المغترب معه من الوطن الأم يختلف كلياً عما حوله من ممارسات ومساعدات تقدمها الدولة للمغتربين الجدد. وتوجد بعض الصعوبات التي تواجه المغترب الجديد وهي متطلبات وشروط الحصول على وظيفة أو عمل. ومن هذه المتطلبات ـ أولاً ـ أن يكون طالب الوظيفة حاصلاً على الخبرة العملية الكندية (Canadian Experience) وثانياً ـ أن لا تتجاوز الكفاءات العلمية المتوفرة لدى طالب الوظيفة ما هو مطلوب أو لازم لتلك الوظيفة (Overqualified).

1 ـ خصائص الفكر العربي

يحمل المغترب الجديد خصائص الفكر العربي المسيطر على المجتمع العربي. وأهم هذه الخصائص:
1 ـ الخضوع للواقع: الفكر العربي عاجز عن التفوق على الظروف وتكيفها لمصلحة الحياة والإنسان لأنه يرى أن الظروف الطبيعية والاجتماعية كائنات مقدسة جبارة أزلية أبدية لا يمكن مقاومتها والانتصار عليها.
2 ـ الخيال السطحي المحدود: الفكر العربي ضيّق الصدر، خامد الأنفاس، بعيد عن الإبداع، عاجز عن تخطي واقعه وعن تصوّر السعادة في هذه الحياة أو في الإنسان. وهو لا يدرك كمال الإنسان ولا كمال الأشياء، ولا يسعى لتحصيل هذا الكمال ولا ينتظره لأنه يراه مستحيلاً.
3 ـ المخاوف الغيبية: إن ظاهرة الترهيب والتهديد بالمخاوف الغيبية قد طبعت التفكير العربي بطابع الخوف والكآبة وقصر الآمال وترقب الموت وقيام الساعة وفناء العالم. والآمال الضيقة لا يمكن أن تزرع الآمال الكبيرة والخوف من الموت لن يبدع الحياة.

4 ـ التفسير اللاهوتي: يفسّر الفكر العربي كل أحداث الكون والإنسان والمجتمع وكل شيء سواء كان ساراً أو فاجعاً، تفسيراً لاهوتياً، ثم يحاول أن يعالجه علاجاً لاهوتياً. فكل الأحداث أحداث الكون والإنسان وأحداث المجتمع إنما تحدث بأسلوب لاهوتي وتتغير بأسلوب لاهوتي. واللاهوتية تعوق الفكر عن الحركة.
5 ـ غياب النقد: الفكر العربي لا يحمل القدرة على النقد الذاتي ولا يميز بين النقد والخيانة. والشعوب العربية لا تعترف بقيمة النقد بل لا تعرفه. وهي لذلك تتغذى على الجيف العقلية التي تقدم إليها. لا تسأم التصديق بدون برهان ولا تمل الانتظار. وأن فقدان القدرة على النقد وإهماله ونبذه هو الذي صنع هذا الضعف الفكري في العالم العربي.
6 ـ تعطيل العقل: الفكر العربي يعاني من غياب التصميم العقلاني. إذ إن أحكام التفكير العربي على الأشياء ليست نتيجة دراسة مباشرة، بل هي أحكام مطلقة بلا دراسة أو تمحيص أو تدقيق. إذ ليس في طبع التفكير العربي الصبر على الدراسة العلمية المباشرة الشاملة أو اتباع الأسلوب والمنهج العلمي الإحصائي في ملاحظاته وأرصاده ودراساته.
7 ـ الاتكالية: التفكير العربي تفكير اتكالي، هارب من نفسه، يبحث عن الأرباب والخرافات والأكاذيب والعقائد الجاهزة والقياصرة المتألهين ليحكموه ويذلوه ويرهبوه، دون أن يتسامحوا معه أو يحترموا عقله وكرامته. يريدونه أن يؤمن لا أن يفكر. وهو يهاب الحقيقة، لا يبحث عنها إذا بعدت عنه، ولا يرحب بها إذا واجهته. أشنع أعدائه هم الذين يبحثون عن الحقيقة أو يحترمونها أو يحاولون أن يدلوه عليها. وأفكار اليوم هي عبارة عن أصوات بلا كلام، لا تحمل تفسيراً لموقف ولا وعياً لقضية ولا احتراماً لحقيقة.

2 ـ الأفكار الثابتة أو التعصب والتطرف

الملاحظ أن الإنسان العربي، على العموم، لا يستعمل في حديثه ونقاشه تعابير الاتزان والاعتدال مثال: "على الأرجح" و"من المحتمل" و"ربما يحدث" و"نوعاً ما" و"إلى حد ما" و"لست متأكداً" و"قد يحصل ذلك"... إلخ من تعابير الاتزان والاعتدال التي تخفف من حدة الجزم في الأقوال والأفعال. بينما نراه على العكس من ذلك، يكثر من استعمال تعابير الجزم والتأكيد والإطلاق مثال: "من المؤكد" و"لا ريب في ذلك" و"بلا شك" و"لا بد من" و"المسألة لا تحمل الشك" و"هذا ما سيحدث بالفعل"... إلى غير ذلك من التعابير الجازمة التي تؤكد أن المتكلم على صدق مطلق وصواب في كل ما يقول ويفعل.
وكل هذا يعني أن النفسية والعقلية العربية، على العموم، تفتقران إلى ميزات التواضع والتسامح والحرية والعقلنة المتوفرة في النفسيات والعقليات الغربية. كما أن الاعتقادات الخاطئة الدخيلة على العقلية العربية قد أثرت تأثيراً كبيراً على سلوك ونفسية الإنسان العربي المعاصر. والملاحظ أن التفكير العربي مثل سواه من التفكير الإنساني خاضع للظروف العامة والخاصة التي تولده وتطوره وتكيّفه. ومن الغباء تفسير تخلف الإنسان العربي بسبب تخلف الأوضاع المحيطة به وقساوة الظروف التي يواجهها. لأن الإنسان ـ المجتمع هو المسؤول الأول عن تخلف أوضاعه وليست أوضاعه مسؤولة عن تخلفه، فالإنسان حسب المفاهيم العلمية الجديدة التي كشفت عنها نواميس الفيزياء الحديثة (فيزياء الكم والنسبية) لم يعد شاهداً أو مراقباً أو راصداً (منفعلاً) للعمليات وللاحداث الكونية بل أصبح مشاركاً وفاعلاً في تقريرها ووجودها. وكشفت النواميس الطبيعية والرياضية عن وجود تفاعلات متبادلة (Interactions) بين الإنسان والأحداث. وهكذا فإن مكتشفات ماكس بلانك وألبرت اينشطين وأتباعهم من الفيزيائيين والرياضيين قد أثبتت أن الإنسان هو المرجع الأول والأخير لكل حادثة أو تجربة فيزيائية. إذن فالإنسان الذي يملك ظروفاً سيئة متخلفة هو المسؤول تاريخياً عن وجودها، لأنه هو الذي صنعها بشكل أو بآخر. وكذلك الإنسان ـ المجتمع الذي يملك ظروفاً حسنة متقدمة هو أيضاً المسؤول عن وجودها وهو الذي صنعها.

3 ـ فساد أسلوب التعليم

الملاحظ أن المغترب العربي يحمل معه الكثير من المساوئ الناتجة عن فساد أسلوب التعليم. والمؤسف أن الجامعات العربية لم تؤسس أجيالاً قادرة على حمل رسالة الحياة الجديدة ولم تنشئ رجالاً قادرين على تغيير مجرى التاريخ، بل أنتجت دمى تنفعل وتؤدي وظيفتها بخضوع دون أن تكون قادرة على الفعل. لقد أنشأت الجامعات العربية آلات بشرية منفعلة مشلولة الفكر ببغائية اللسان عاطفية الاستجابة خاضعة لسلطة الكلمة المطبوعة والمسموعة بسطحية وسماجة.

إن الأنظمة التربوية العربية، على العموم، فاسدة وفاشلة وغير جديرة بالتعبير عن متطلبات هذا العصر. ويبدو للمراقب أن العقل في العالم العربي ولدى الإنسان العربي في إجازة دائمة. فكل ما صدر عن الإنسان العربي كحاكم وكسياسي وكمربي وكعسكري وكإقتصادي لا يمت إلى العقل والعقلانية بصلة. هناك غياب كامل ملحوظ للعقل والمنطق والعلم في تصرفات وسلوك الإنسان العربي. إنه يعيش بجسده في أول القرن الحادي والعشرين، في حين أفكاره وعقليته وانفعالاته النفسية وسلوكه الحياتي هي من مخلفات القرون الوسطى. وأما أسلوب التعليم الذي يتبعه أساتذة الجامعات فهو أسلوب يعبّر عن أنانية فردية جامحة. فإبراز النفس وتعزيز وجهة النظر الشخصية وتسويغها، وتطويع الآخرين وإخضاعهم نفسياً، كل ذلك يدل على أن المربين الذين عهد إليهم المجتمع بتربية رجال مستقبله ليسوا أهلاً لتحمل هذه المسؤولية الخطيرة.

4 ـ التضارب بين المفاهيم والمصطلحات

المؤسف أن الجامعات العربية لا تساهم حالياً باكتشافات العلم الحديث، ولم تعط العلم الحديث ولا الحضارة الحديثة شيئاً هاماً من نتاجها الفكري والعلمي. والذين تشرفوا بنيل جائزة نوبل من العرب في الطب والكيمياء والفيزياء حتى الآن كانوا من الجيل الثاني من المغتربين اللبنانيين والمصريين الذي ولدوا وتثقفوا في مدارس ديار الاغتراب وجامعاتها. وتوجد في ديار الاغتراب بعض المساهمات الهامة للعلماء العرب في ميادين الاكتشاف العلمي والاختراع التقني. في حين أن أمماً شرقية كالهند والباكستان واليابان سبقتنا إلى هذا الشرف، إذ استطاع علماء جامعاتها أن يقوموا باكتشافات علمية لها أثرها الهام في ميدان التقدم العلمي، واستطاعوا أن يدخلوا معركة المجد العلمي من بابها الواسع، فكان لهم شرف نيل جائزة نوبل في الفيزياء أكثر من مرة.

والملاحظ أن المهتمين بالأبحاث العلمية في الجامعات العربية هم قلة قليلة جداً، والسبب الأول لذلك هو عدم تشجيع البحث العلمي وعدم رصد الأموال اللازمة لتمويل مشاريع الأبحاث، والسبب الثاني هو أن الثقافة التي تقدمها الجامعات العربية هي ثقافة أوراق الملخصات المنقولة عن الكتب الجامعية الغربية القديمة بلا إبداع ولا تطوير ولا اعتبار لحاجات ومتطلبات المجتمع والطالب العربي النفسية والعقلية والاجتماعية. ولذلك فإن استعمال المصطلحات والمفاهيم الفكرية العميقة بعيد عن متناول المثقف العربي. وإذا كان الطالب العربي لا يفهم ولا يعي ولا يستعمل المفاهيم والمصطلحات الفكرية والعلمية الأساسية بلغته القومية فكيف يمكن له أن يعيها ويفهمها ويستعملها استعمالاً صحيحاً باللغة الأجنبية. فالمصطلحات تنشأ من مزاولة الأعمال والنشاطات المتنوعة ويضعها من يزاول معانيها ويعي مفاهيمها فإذا وجد الفيلسوف وجدت معه المصطلحات الفلسفية، ومتى وجد العالم وجدت معه المصطلحات العلمية، ومتى وجد الاقتصادي وجدت معه المصطلحات الاقتصادية. الفعل أولاً ثم القول به ثانياً. والفعل والقول متعاصران. وهذا يعني أن وضع المصطلحات عمل تشترك فيه الأمة كلها، وقد حصرها العرب ـ حتى الآن ـ في المجامع اللغوية، التي يقف عملها عند حد التفتيش بين صفحات الكتب أو الرجوع إلى القديم. إن موضوع المصطلحات أوسع بكثير من التفتيش في الكتب والتسجيل والاطلاع الكافي على اللغات الحية. الموضوع هنا هو موضوع استعمال وذوق سليم قبل كل شيء، لأن الاستعمال هو المعيار الذي تفرض به الحياة نفسها وسلطانها. إن مسألة وضع الرموز والمصطلحات واستعمالها تقع مسؤوليتها بالدرجة الأولى على أساتذة الجامعات العربية وليس على

اللغة العربية نفسها، لأن الأبحاث العلمية العالية التي يقوم بها الأساتذة العرب في الجامعات العربية وباللغة العربية تكاد تكون معدومة. بينما نرى أن الأكثرية الساحقة من أساتذة الجامعات العربية (العرب لساناً)، وفي مختلف البلاد العربية، ما زالوا يكتبون أبحاثهم باللغات الأجنبية (الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والروسية...إلخ) وينشرونها في مجلات علمية أجنبية دون ترجمتها ونشرها باللغة العربية وهم خلقوا بذلك ثلاث مشاكل في ميدان التعليم الجامعي العربي: الأولى، حرمان الطالب في الجامعة العربية من التمتع بمعرفة ما يجري من بحوث جديدة في ميدان العلم الحديث في جامعته. الثانية، إظهار اللغة العربية بمظهر اللغة الضعيفة المتخلفة المفتقرة إلى الرموز والمصطلحات والعاجزة عن متابعة قافلة العلم الحديث. والثالثة، تدهور مستوى قيمة درجة البكالوريوس التي تمنحها الجامعات العربية في مواضيع الاختصاص العلمي (العلوم الطبيعية والهندسة والتقنية الحديثة على الخصوص).

5 ـ الإنسان العربي المعاصر بين الحرية والقهر

ليس من الصدفة أن يكون المجتمع العربي قد عجز عن إنتاج مفكر أو عالم أو كاتب واحد على مستوى عالمي. فموهبة الإبداع لا تكتسب ولا تستورد ولا تدرّس في الخارج. المقدرة الخلاقة تكمن في أعماق الفرد. فإذا أتيح لها المحيط الملائم نمت وترعرت وازدهرت وإلا اختفت وقضي عليها قبل أن يعرف أحد بوجودها والجو الملائم الذي يقدمه المجتمع بأخلاقه وقيمه وطرق التربية فيه. فإذا كان المجتمع يخاف الإبداع ويرى في قوى الخلق خطراً عليه (على تقاليده وتراثه) عمد إلى القضاء عليها بالوسائل كلها. وأنجح هذه الوسائل هي قهر الفرد في صغره، ومن ثم تكبيله فكرياً ونفسياً في الكبر. كم من شكسبير وأينشتاين وماركس قضي عليهم في المجتمع العربي قبل أن يصلوا إلى سن المراهقة.

الملاحظ أن تلك الأوضاع المريضة قد كبلّت العقل العربي بقيود ثقيلة لتتخلص منه ومن المحاولات العقلية الشاقة، وبذلك تحوّل الإنسان العربي إلى ببغاء ينقل ويحفظ ويصنّف ويفسّر ويؤوّل النصوص النقلية. وكان النتاج الثقافي لكل ذلك، تلك الأكداس الثقيلة من النقل والشروح والتفاسير والروايات والقصص الغبية التي فقدت كل مزايا الفكر والفهم والقوة والإبداع. ويصف المفكر عبد الله القصيمي هذه الحالة الزرية من الانحطاط الفكري والثقافي التي تعيشها المجتمعات العربية بقوله: "وحتى اليوم لا تزال هذه المجتمعات ترفع من مقام الرواة والمحدثين والقصاصين والحفاظ،، والتعليم في المدارس والجامعات قائم في أكثره على الحفظ. وقد لوحظ أن التأليف حتى اليوم، ولدى كبار كتابنا، ليس سوى عملية نقل، إما عن تاريخنا القديم أو من معطيات العصر الحديث. والنقل عن هذا وذاك عملية تكرار بليدة. وقد ترتبت على هذه الثقافة النقلية وقفة عقلية، فإن توجيه الطاقة كلها إلى النقل أدى إلى وقف العقل، وحين وقف ضمر وبعد أن وقف وضمر أصابه الفساد، لأنه أصبح مستقبلاً فقط ـ أصبح يستقبل الفساد الذهني القديم المتجمع في المحفوظات من غير أن يكون له نشاط أو تصريف، فصار مثل البركة التي تتلقى دائماً الفضلات بدون أن تصرف منها شيئاً. لقد خسرنا الحضارة بخسارة العقل، وأصبحنا وجوداً لا إبداعاً! وغام فوقنا سكون رهيب من الاستسلام الفكري وطال الليل والانتظار لانبثاق الفجر".

الخلاصة: بعد الملاحظات المذكورة سابقاً حول مأساة الأجيال المعاصرة من المغتربين والمقيمين التي تعاني الكثير من الفشل والهزيمة في حياتها. نرى أن الضرورة والحاجة العربية تقضيان اليوم بتعبئة أهل الرأي والفكر والعلم والمعرفة في كل بلد عربي وفي كل ديار الاغتراب العربي، للعمل جميعاً في مؤتمر أو ندوة أو حلقة مستمرة لكي يبحثوا ويخططوا ويقدموا إلى الحكومات العربية (إذا كانت مستعدة للتنفيذ وقادرة عليه) المخططات والبرامج والمناهج والمشاريع العملية المدروسة. ويرسموا للجيل الحاضر الطريق الصحيح للعمل البناء الذي يشمل جميع جوانب الحياة العربية الاقتصادية والعلمية والاجتماعية والتربوية والعسكرية فيجعلوا من الأرقام والجداول والاحصائيات لغة الشعوب والحكومات لتحل محل لغة الخطابات والتصريحات والبيانات.